عندما يصبح التنظير مهنة المتعالمين

08 يناير 2025

فكر وتحليل

4 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

عندما يصبح التنظير مهنة المتعالمين

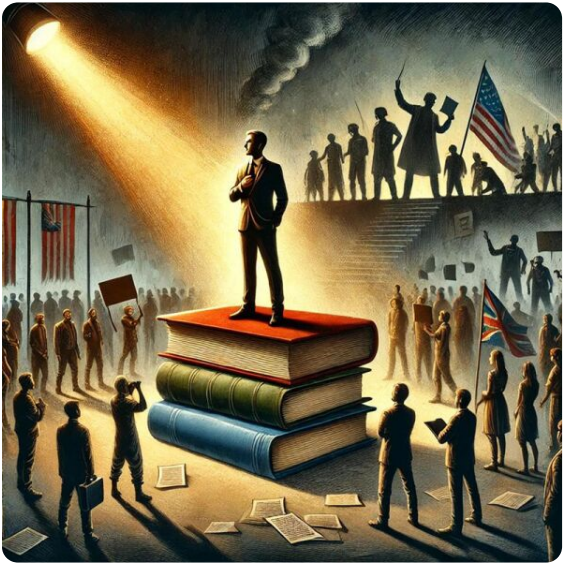

أتـابع منـذ فتـرة، ببعـض مـن المتعـة المشوبـة بالأسى، كتابات مثقّفينا عن السياسة والثورة والتغييــر. ذاك أنّ فــي متــابعتهم مــا يشبــه مشاهدة مسرحية كوميدية: الممثّلون يأخذون أدوارهم بجدّية بالغة، فيما يدرك المشاهدون أنّهم يشهدون عرضاً هزليّاً من غير قصد.

وقـد لفـت انتبـاهي، فـي النقطـة الثامنـة مـن المقال المرفق بالمغالطات، تنظير الكاتب للثورة والطبقـة العاملـة والإخـوان المسـلمين. فالرجـل يتحدّث عن هذه القضايا المعقّدة كما لو أنّه يشـرح وصـفة طعـام: شـيء مـن البروليتاريـا، وقليـل مـن النخبـة، مـع رشّـة مـن الأيـديولوجيا. وكأنّ الثورات، في تاريخ البشرية كلّه، لم تكن سوى خلطة بسيطة من مكوّنات محدّدة.

والحال أنّ الثورات تشبه النسيج المعقّد الذي تتـداخل فيـه خيـوط كثيـرة: عمّـال وفلاحـون ومثقفـون وطلبـة وجنـود منهكـون وطبقـة وسطى محبطة. ولعلّ التجربة البلشفية نفسها خيـر مثـال علـى هـذا التعقيـد، إذ جمعـت بيـن المثقفين الثوريين والعمّال والفلاحين في مزيج متفجّـر غيّـر وجـه روسـيا والعـالم. لكـنّ كاتبنـا المتعالي يختزل هذا كلّه في معادلة بسيطة تليق بتلاميذ المدارس الابتدائيّة.

أمّا حين يتناول موضوع الإخوان المسلمين، فإنّ تحليله يغدو أشبه بمحاولة قياس عمق البحر بمسطرة مدرسية. فهو يقرّر، بجرّة قلم واحدة، أنّ علاقة الإخوان بالطبقة العاملة "انقطعت تماماً". وكـأنّ العلاقـات الاجتماعيـة والسياسـية مجـرّد

أسلاك كهربائيــة يمكــن قطعهــا بقــرار إداري. والحـال أنّ الحركـات السياسـية - الدينيـة تنسـج شبكات معقّدة من العلاقات تمتدّ من المساجد إلـى الجمعيـات الخيريـة، ومـن المـدارس إلـى المسـتشفيات. هـذه الشبكـات لا تتبخّـر بمجـرّد حظر نشاط الجماعة.

ولا أريـد هنـا أن أتّخـذ موقفـاً مؤيّـداً أو معارضـاً للإخوان أو لغيرهم. ما يعنيني هو ذاك التعالي المعرفيّ الذي يتجلّى في ربطه بين الفشل المزعــوم ل "الشعــار الــدينيّ" فــي سوريــا ومستقبل الإخوان في مصر. وهذا يشبه من يقرّر أنّ الطقس سيكون حارّاً في بيروت لأنّه حارّ في بغداد. فلكلّ بلد عربي خصوصيته وسياقه وتعقيداته، والصراع في سوريا ليس هو الصراع

في مصر.

وما يثير الاستغراب حقّاً وصفه للشعارات الثورية بـــ "المراهقـــات والطفوليـــات". ذاك أنّ هـــذا التوصـيف نفسـه يكشـف عـن نظـرة متعاليـة وسـطحية لـديناميكيات الثـورات. فالشعـارات الثوريـة، فـي واقـع الأمـر، ليسـت مجـرّد هتافـات عـابرة أو نـزوات شبابيـة، بـل هـي تعـبير عـن تطلّعات جماعية وآمال مكبوتة وغضب متراكم. والحـال أنّ وصـف هـذه التعـبيرات بالمراهقـة والطفولية يشبه من يصف المريض بأنّه يتصنّع الألم لمجرّد أنّه يصرخ من وجعه.

والأدهى أنّ كاتبنا يتجاهل تماماً علم النفس الاجتمـاعي وآليـات التعبئـة السياسـية. فهـو يفترض أنّ الناس يقرّرون الانخراط في الحركات

السياسية بناءً على حسابات بسيطة: هل نجحت في الحكم أم فشلت؟ هذا التبسيط المخلّ يتجاهل دور الهوية الجماعية والمشاعر الدينية والإحباط الاجتماعي والظلم السياسي في تشكيل الوعي والسلوك السياسيين.

على أنّ الأخطر في النصّ هو تجاهله التطوّر الكبير في نظريات الحركات الاجتماعية الجديدة. فهو لا يزال أسير النظرة الماركسية التقليدية التي تختزل كلّ شيء في الصراع الطبقي. والحال أنّ الثورات المعاصرة قد تنطلق من قضايا ثقافية أو هُوياتية أو حقوقية، وقد تجمع بين مطالب اقتصادية وسياسية واجتماعية في آن معاً.

في النهاية، لا يسعني إلاّ أن أشكر الكاتب على

هذه الجرعة من "التنوير" التي قدّمها لنا. فهو، من حيث لا يدري، قد قدّم لنا درساً مهمّاً: أنّ التعالي الفكريّ، حين يقترن بالجهل، ينتج مهزلة فكريّة تستحقّ المشاهدة. ولعلّ هذا ما يجعلني أتابع هذا النوع من الكتابات باستمتاع: إنّها تذكّرنا دائماً بأنّ التواضع المعرفيّ هو أوّل درجات الحكمة.